

الأولياء والكرامات

الدرس
14

أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم الولي والكرامة.
2. أن أفرق بين الكرامات والمعجزات.
3. أن أخلق بأخلاق أهل الولاية والعرفان.

تمهيد

خلق الله الخلق لعبادته، وتولى الصالحين منهم وبَشَّرَهم بمحبته، وتوعد من عادى أوليائه بحَرْبه؛ إذ هم خاصته من خلقه، وصفوته من عباده، بيَّن الله صفاتهم في كتابه، ونَصَب لهم أمارات معروفة، وصفات معلومة، بها يُعرفون، وجعلهم أنجما بين العباد بهم يقتدون.

فمن هم الأولياء؟ وما صفاتهم؟ وما هي كراماتهم؟

نص الانطلاق

1. قال العلامة ابن الزيات التادلي - رحمه الله -:

«اعلم أن كرامات الأولياء جائزة عقلا ومعلومة قطعاً، وممن قال بها إمام المتكلمين القاضي أبو بكر بن الطيب (الباقلاني) فقال: إن المعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء. وقال إمام الحرمين: المرضي عندنا تجويز خوارق العادات في معارض الكرامات. وذكر الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى كرامات الأولياء فقال: ذلك مما لا يستحيل في نفسه؛ لأنه ممكن لا يؤدي إلى محال. وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: أما كرامات الأولياء فجائزة عقلاً، وواردة سمعاً، ومن أعظم كرامات الله تيسير أسباب الخير وإجراؤه على أيديهم، وتعسير أسباب الشر عليهم، وحيثما كان التيسير أكثر كانت الكرامات أوفر. وما ينقل عن صالح هذه الأمة أكثر من أن يحصى، وهي بآحادها إن لم تفدنا علماً

بوقوعها فهي بمجموعها أفادتنا علما قطعيا و يقينا صادقا بأن خوارق العادات تظهر على أيدي أصحاب الكرامات... ، قال الله تعالى ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]. وليت شعري أي كرامة تزيد عن نيل الفرقان بين الحق والباطل وسبيل النجاة والهلاك» [التشوف إلى رجال التصوف، ص 55 بتصرف].

2. قال الفقيه محمد بن جعفر الكتاني -رحمه الله-: «اعلم -هداك الله تعالى- أن أحسن ما يطرق الأسماع، ويحسن الإلمام به والإلماع، ويطلب خبره وحديثه: محاسن أهل الله وشمائلهم، وفواضلهم السنية وفضائلهم، ومزاياهم العظيمة الفاخرة، ومواهبهم الجسيمة الوافرة؛ إذ بذكرهم تنتزل الرحمت، وتنزل سوابغ النعمات، وتُستمر سحائب البركات، وتُستحب السعادة في السكنات والحركات، وببركاتهم تنعقد العزمات، وتنحل عرى الشدائد والأزمات، وبنفحاتهم تحيي القلوب، وتنبعث همتها إلى المطلوب، وتستيقظ من منامها وترتوي بعد أوامها» [سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، 12/1].

الفهم

الشرح:

- **خوارق العادات:** ما خرج عن الأمر المعتاد، وهي بحسب من تضاف إليه؛ فإن تعلقت بنبي فمعجزة، وإن تعلقت بولي فكرامة.

استخلاص المضامين:

- أستخلص ما في النصين من بركات الأولياء.

التحليل

أولا: الأولياء

1. من هو الولي؟

ذكر الله عز وجل في كتابه حقيقة أوليائه فقال ﴿الْأَيُّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62-63] فالإيمان والتقوى من أركان الولاية؛ ذلك أن «الولي هو الموالي للطاعات والقربات المواصل للعفاف والتنزّه عن المخالفات» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، لأبي العباس العزفي، ص 69]. ومبنى الولاية على العبادة والطاعة؛ إذ «حقيقة الولاية

القرب . . . ، فكل من كانت حالته طاعة لا معصية فيها ، واستقامة لا عوج فيها ، وشهودا لا غيبة فيه ، فهو ولي الله حقا ، وأولى الناس به صدقا» [دعامة اليقين في زعامة المتقين ، ص 66] . وإطلاق هذا اللفظ «ولي الله» دل عليه القرآن الكريم كما في قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : 257] وقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَوَصَّلُوا إِلَىٰ الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف : 196] وقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة : 55] فصَحَّت بذلك الإضافة .

2. أنواع الولاية وطبقات الأولياء

يستفاد مما ورد من آيات الولاية في القرآن الكريم أن «الولاية على ضربين : ضرب خاص ، وضرب عام ، فالخاص قوله تعالى ﴿إِنَّا وَلِيُّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف : 196] . والعام ولاية الله للمؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : 256] .

وقد ذكر العلامة عبد الحق البادسي أن الأولياء على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : يكونون بين الناس ، لا يعلم ولا يتهم إلا الله تعالى ، ومن أنعم الله تعالى عليه ، يرحم الله بهم العباد ، يشتغلون بما يشتغل به الناس من سائر الحرف والمكاسب ، وهم أهل ورع .
الطبقة الثانية : قوم لا يسكنون إلى أحد ، وينتقلون من بلد إلى بلد ، يرزقهم على يد عباده المؤمنين ، ليس لهم قصد إلا الله تعالى ، يتفرغون لعبادته .

الطبقة الثالثة : الزاهدون في الدنيا الذين يعتبرون حلالها حسابا ، وحرامها عقابا ، فإذا أراد الله أن يرزقه كرامة نقله من التوكل إلى اليقين ، وذلك بفضل من الحق ، يختص برحمته من يشاء [المقصد الشريف والمنزع اللطيف ، ص 20-25 بتصرف] .

3. شروط الولي

لا يكون الولي وليا إلا إذا استجمع شروط الولاية؛ فالولاية لا تكون بالادعاء ، بل هي توفيق واصطفاء ، وعمل واجتهاد ، ودليل الولاية الاستقامة؛ ذلك أن «أولياء الله هم الذين يتولونه بالطاعة ، ويتولاهم بالكرامة» [دعامة اليقين في زعامة المتقين ، ص 66] . والولي حقا من حفظ حق الله في السراء والضراء ، والسر والعلانية ، وتوالت أفعاله على الموافقة «ومن شروط الولي عند أرباب الحقائق من أهل هذه الطرائق أن يكون محفوظا ، كما أن من شرط النبي ﷺ أن يكون معصوما ، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فدعاويه للولاية إعراض ، وفي أولئك قال الله سبحانه ﴿الْأَيُّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : 62] [دعامة اليقين في زعامة المتقين ، ص 70] .

4. علامات الأولياء وصفاتهم

ذكر الإمام القشيري أن «علامة الولي ثلاثة أشياء: شغله بالله، وفراره إلى الله، وهمة إلى الله عز وجل» [الرسالة القشيرية، 419/2]. وغرض ذكر هذه العلامات بيان أن وصف الولاية لا يطلقه من شاء كيفما شاء، فلا أولياء علامات وصفات، وعلى هذا فالأولياء عباد تسربلوا بعد المكابدة، واعتنقوا الرواح بعد المجاهدة، وهم بين الناس قد يُعرفون وقد لا يُعرفون، والشرع قد أخبر بفضلهم، وحقيقتهم، والنفس البشرية تتطلع إلى معرفتهم للانتفاع بدعواتهم، وتنزيلهم منازلهم، وإجلالهم إجلالا يليق بمقامهم، وذلك من مقاصد ذكر علاماتهم، وقد سبقت الإشارة إليها إجمالاً في الآية الكريمة (الإيمان، والتقوى) وفُصلت تفصيلاً في كتب أرباب الطريقة ببيان العلامات، وبسط الأمارات، وذكروا من علامات الولي وصفاته «أداء حقوقه سبحانه، ثم رفقته وشفقته على الخلق في جميع أحواله، ثم إيساط رحمته لكافة الخلق، ثم دوام تحمله عنهم بجميل الخلق، وابتدأه لطلب الإحسان من الله إليهم من غير التماس منهم، وتعليق الهمة بنجاة الخلق، وترك الانتقام منهم، والتوقي عن استئثار حقد عليهم، مع قصر اليد عن أموالهم، وترك الطمع بكل وجه فيهم، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم، والتهاون عن شهود مساوئهم، ولا يكون خصماً لأحد في الدنيا والآخرة» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 72].

وجماع ما ورد في صفاتهم مداره على استقامتهم، وحسن معاملتهم مع خالقهم، ثم مع أنفسهم، ومع الناس من حولهم، ويكون ذلك حقاً وصدقاً في مخبرهم ومظهرهم، ومطعمهم، ومشربهم وملبسهم؛ ذلك أن «صفة الأولياء أن يكون الفقر كرامتهم، وطاعة الله حلاوتهم، وحب الله حرفتهم، وإلى الله حاجتهم، الله حافظهم، ومع الله تجارتهم، وعليه اعتمادهم، وبه أنسهم، وعليه توكلهم، والجوع طعامهم، والزهد ثمارهم، وحسن الخلق لباسهم، وطلاقة الوجه حليتهم، وسخاوة النفس حرفتهم، وحسن المعاشرة صحبتهم...، أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 74 بتصرف].

5. الأولياء والصلحاء في المغرب

لقد عني علماء المغرب بتأليف كتب خاصة في التعريف بأولياء وصلحاء المغرب، ومن بواعث تأليف كتاب «التشوف إلى رجال التصوف» للأديب المحسن المتفنن «ابن الزيات» ما ذكره من إهمال من تقدم من المصنفين والكتاب ذكر صلحاء المغرب الأقصى، فتتبع ذكر محاسنهم وأخبارهم، وذكر جماعة من صلحاء المغرب بأدب بارع، وتبعه جماعة من العلماء في التعريف بالأولياء والصلحاء حسب المدن والمناطق، كصنيع العلامة عبد الحق البادسي صاحب «المقصد

الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف» الذي رام استدراك ما فات «ابن الزيات» من صلحاء الريف، وألفت كتب أخرى في التعريف بالأولياء حسب المناطق، ومن ذلك ما جمعه العلامة محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني في كتابه «سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس» وغيرها من الكتب التي جمعت أخبار الأولياء والصلحاء بالمغرب.

6. فائدة معرفة الأولياء

أخبر الله عز وجل في كتابه بحقيقة وصفة أوليائه لِيُتَحَلَّى بِفَضَائِلِهِمْ وَيُقْتَبَسَ مِنْ نُورِهِمْ، فهم ورثة الأنبياء في أحوالهم ومعاملاتهم، وقد قال الله بعد ذكر عدد من رسله وأنبيائه ﴿إِنَّ إِلَهِكُمْ إِلَهُي﴾ [الأنعام: 91]. والافتداء يكون بالأنبياء وورثتهم ومن سلك طريقهم، وكتب التراث الإسلامي زاخرة بأخبار الصلحاء والأولياء، وما أكرمهم الله به من مكرامات، وكشف عنهم من شدائد وأزمات «وإذا تعذرت رؤيتهم ومصاحبتهم، فلا شيء أنفع للقلوب والنفس من سماع أحوالهم، ومطالعة أخبارهم وما كانوا عليه من الجهد الجهد في العبادة، وقد انقضى تعبهم، وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الأبد لا ينقطع» [سلوة الأنفاس، ص 15].

ثانياً: الكرامات

1. حقيقة الكرامات

الكرامة ظهور أمر خارق للعادة على يد ولي معروف بالطاعة والعرفان، بلا دعوى نبوة. وتكون للدلالة على صدقه وفضله، أو لقوة يقين صاحبها أو غيره...، قال الإمام أبو العباس العزفي السبتي -رحمه الله- في بيان حقيقة الكرامة «كل فعل خارق للعادة ظهر على يدي عبد ظاهر الصلاح في دينه، مستمسك بطاعة الله في أحواله، مستقيم الطريقة في تصرفاته» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 23].

2. وقوع الكرامات

الأدلة السمعية متواترة في الدلالة على وقوع الكرامات، قال العلامة عبد الحق البادسي -رحمه الله- «قد أجمع أهل السنة على جواز خرق العادة للأولياء على وجه الكرامات» [المقصد الشريف والمنزع اللطيف، ص 39] وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لمن وقعت لهم الكرامات، منها: قصة أهل الكهف، حيث أقاموا مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين على الحال الذي وصفهم الله به ﴿وَنَحْسِبُهُمْ فِيهَا رَافِقِينَ﴾ [الكهف: 18] وذكر أنهم كانوا أحياء بلا آفة ولا غذاء، وليسوا بأنبياء بإجماع الفرق... وأما السنة: فكحديث جريج الراهب الذي كلمه الطفل الرضيع، وحديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة... [الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، 5/1].

وغيرها من القصص التي تدل على وقوع الكرامات، كما وقع لسيدنا الخضر في إقامة الجدار، وقصة ذي القرنين، وأم موسى التي طابت نفسها بإلقاء ولدها في اليم، قال الإمام أبو العباس العزفي «ولم يزل دأب الأنبياء والصديقين والعلماء والصالحين التصديق بالكرامات» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 23]. قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «وأكمل الكرامات: الاستقامة على التوحيد في الباطن، وتحقيق العبودية في الظاهر» [البحر المديد، 2/126]. وقال «كما شهد الحق تعالى لرسوله بالنبوة والرسالة، شهد لمن كان على قدمه من ورثته الخاصة بالولاية والخصوصية، وهم الأولياء العارفون بالله، وشهادته لهم بما أظهر عليهم من العلوم الدنية والأسرار الربانية، وبما أتحفهم به من الأخلاق النبوية والمحاسن البهية، وبما أظهر على أيديهم من الكرامات الظاهرة مع الاستقامة الشرعية، لكن لا يدرك هذه الشهادة إلا من سبقت له العناية، وكان له حظ في الولاية» [البحر المديد، 1/594].

3. علامات الكرامات وأهلها

القول بوقوع الكرامات لا يعني أن يدعي كل من وقع له شيء أن له كرامة، فالكرامة لها علاماتها، ويشهد بها أهلها، وتحصل لمن هو أهل لها، قال الإمام أبو العباس العزفي «واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، وعمارة الأزمنة بالموافقات، ولزوم التماسي على الاستقامة، والعصمة عن المعاصي والمخالفات، والحفظ عما يزرى بمناصب ذوي الهيئات، والتنزه عن مواقع الريب والشبهات، فذلك من أجل الكرامات، ومن أجل الشواهد على صدق من وفق لذلك وأوضح العلامات» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 30]. فالكرامة لا تكون ادعاء، وهيمنة يخص الله بها أولياءه، ونقل الإمام أبو العباس العزفي أنه «حصل الإجماع على أن الكرامة لا تحصل إلا على يد متمسك بطاعة الله تخصيصاً له وتفضيلاً، كما أجمعوا أنها لا تظهر على يد فاسق» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 23].

4. الفرق بين المعجزة والكرامة:

المعجزات تكون للأنبياء، والكرامات للأولياء، وقد ذكر الإمام أبو العباس العزفي السبتي جملة فروق بين الكرامة والمعجزة، ومنها «أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها، والنبي يذيع ذلك ويقطع القول به، والولي لا يذيعها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرراً...»، وقال آخرون: المعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء، ولا تكون للأولياء معجزة؛ لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة...، والولي لا يدعي النبوة فالذي يظهر لا يكون معجزة» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 23 بتصرف]. والكرامة لا تدل على العصمة، لكنها تدل على الاستقامة.

5. هل ظهور الكرامة دليل الولاية؟

إن ما ينبغي التحقق منه أولاً عند ادعاء الكرامة النظر والتأمل فيما ظهر هل هو كرامة؟ فإذا تبين أنه كرامة، فهل يقطع بولاية صاحبها أو لا؟ قال أبو العباس العزفي السبتي «اختلف أئمتنا في ظهور الكرامة هل تدل على أن من ظهرت عليه أنه ولي الله أم لا؟ فمن صائر إلى أنها تدل على ذلك كما تدل على تمسك صاحبها في حال وقوعها بطاعة الله تعالى؛ إذ لا يكرم الله بها إلا ولياً ونبياً، ثم تدل على أنه يختم لصاحبها بالسعادة...»، وقال آخرون: إنها لا تدل على أمن العاقبة، قال القاضي أبو بكر وهذا هو الأصح والأوضح؛ إذ لو دلت على ذلك لاستيقن السعادة وركن إلى علمها، وهذا مما منعه الصدر الأول، وأطبقوا على أنه لا أمن للمطيعين من مكر الله، ونطقت به نصوص الكتاب» [دعامة اليقين في زعامة المتقين، ص 25].

التقويم

1. أبين مفهوم الولي وصفاته.
2. أستدل من القرآن الكريم والسنة النبوية على مشروعية الكرامة ووقوعها.
3. أذكر الفرق بين الكرامة والمعجزة مع التعليل.

الاستثمار

قال الشيخ زروق رحمه الله: «وتحقيق الإعراض عن الخلق: بالصبر، والتوكل. بالصبر والإعراض عن أذاهم، وما ينعتونه به من نعوت في أحواله، ومجاهداته، وبالتوكل على الله سبحانه وتعالى في جميع أفعاله، وحركاته وسكناته، فليخلص النية والعمل لله، وليتوكل عليه في تحقيق النتائج المرجوة، وليدع قول أهل الفضول، وما جبلوا عليه من خسة ودناءة وسوء؛ فقد لحقت إذاية أمثالهم الرسل والأنبياء؛ فكيف بالأولياء والصالحين المجاهدين للنفس والهوى» [أصول الطريق، للشيخ زروق، ص 29].

أتأمل النص وأتبين من خلاله أثر الإخلاص في الثبات والاستمرار على العمل

الإعداد القبلي

أبحث عن مفهوم «الشيخ» وصفاته و«المريد» وآدابه عند الصوفية.